فانتازيا التاريخي والحكي الصوفي في رواية (سكوت... العارفة إيزابيل تتحدث) لعبد القادر عميش

د. فاطمة قسول

أستاذ مشارك، جامعة البليدة ٢، الجزائر

البريد الإلكتروني: fatimakassoul03@yahoo.com

معرف (أوركيد): 0000-0003-4215-6348

بحث أصيل الاستلام: ١٤-٣-٢٠٢١ القبول: ٢٥-٤-٢٠٢١ النشر: ٢٨-٤-٢٠٢١

الملخص:

يعدّ الكاتب الجزائري عبد القادر عميش في روايته "سكوت... العارفة إيزابيل تتكلم"، من أولئك الكتّاب الّذين حادوا باللّغة عما تدلّ عليه في الأصل، ليغدو الحكي الصوفيّ بتراثيته الّتي تمثّل في الحقيقة فكرا وكتابة معياريّة بامتياز مرجعيّة نصه الروائي، معبّرا من خلالها عن زاوية رؤيته، ومتّخذا إياها معيارا لتجلي تاريخ العارفة إيزابيل، توليفة لفانتازيا التاريخي والحكي الصوفي ضمها الكاتب السارد أمنيته العميقة، أن يكون إلى جانب العارفة، وكل ذلك تمّ في إطار مضمون عالي الرقي، متفرد الطرح الممثّل لمشاعر جياشة، ذات صدى عميق في نفسه ونفس متلقيها.

الكلمات المفتاحية:

الرواية، التاريخي، الصوفي، الفانتازيا

للاستشهاد: قسول، فاطمة. (٢٠٢١). فانتازيا التاريخي والحكي الصوفي في رواية (سكوت... العارفة إيزابيل تتحدث) لعبد القادر عميش. ضاد مجلة لسانيات العربية وآدابها. مج٢، ع١. ٣٠٧-٣٣٥ https://www.daadjournal.com/

Atıf İçin / For Citation: Kassoul, Fatima. (2021). Abdülkâdir Amîş'in "Sessizlik.. Bilge İsabel Konuşuyor" Adlı Romanında Tarihi Fantezi ve Mistik Anlatı. Arap Dilbilimi ve Edebiyatı Dergisi – DÂD. Cilt/Volume 2, Sayı/Issue 3, 307-335. https://www.daadjournal.com/.

Fantasy of the historical and mystical narrative in Abdelkader Amiche's novel "Silence... The Knower Isabel Speaks"

Dr. Fatima Kassoul

Associate Professor, Blida 02 University, Algeria

E-mail: fatimakassoul03@yahoo.com

Orcid ID: 0000-0003-4215-6348

Research Article Received: 14.3.2021 Accepted: 25.4.2021 Published: 28.4.2021

Abstract:

The Algerian writer Abdelkader Amiche, in his novel "Silence... the knower Isabel Speaks", is one of those writers who deviated the language from its original indication, so that the Sufi narration with its heritage, which is, in fact, represented as a standard thinking and writing, becomes his novel's reference. He expresses throughout it his view point. He also uses it as a standard for the knower Isabel's history manifestation. a blend of the historical fantasy and mystical narration included in the narrator's deep wish, to be beside the knower. All of this was done within the framework of a high-end content, unique to the expression of passionate feelings, with a deep resonance in him and his recipients.

Keywords:

Novel, Historical, Sufi, Fantasy

Abdülkâdir Amîş'in "Sessizlik.. Bilge İsabel Konuşuyor" Adlı Romanında Tarihi Fantezi ve Mistik Anlatı

Doç. Dr. Fatima Kassoul

Blida 2 Üniversitesi, Cezayir

E-Posta: fatimakassoul03@yahoo.com

Orcid ID: 0000-0003-4215-6348

Araştirma Makalesi Geliş: 14.03. 2021 Kabul: 25.04.2021 yayın: 28.04.2021

Özet:

Cezayirli yazar Abdülkâdir Amîş " Sessizlik... Bilgin İsabel Konuşuyor" adlı romanıyla dili aslından saptıran yazarlardan biri sayılır. Bununla arklılığıyla standart bir fikir ve düşünceyi temsil eden geleneğiyle mistik anlatımın romanının kaynağına dönüşmesini hedeflemektedir. Yazar bu fikir ve yazım ile kendi görüş açısını ifade etmekte ve onu bilgin İsabel'in tarihinin ortaya çıkması için ölçü olarak almaktadır. Anlatıcı yazar, tarihi fantazi ile mistik anlatımı sentezleyerek bilgenin yanında olmasına dair kendi derin arzusunu içermektedir. Tüm bunlar, kendisi ve hikayenin alıcılarında derin bir rezonansla, tutkulu duyguların ifadesine özgü, birinci sınıf bir içerik çerçevesinde yapıldı.

Anahtar Kelimeler:

Roman, Tarihi, Tasavvufi, Fantezi

تقديم:

يعمل الكاتب العربي على تعريف أمّتنا دورها، ويقوم بذلك عبر إحياء تراثها وتوظيفه في إبداعاته، من باب تحقيق فعل التفاعل النصي، الهادف إلى تكوين فكرة دقيقة ومتجدّدة، هي من دواعي تشكيل وعي جديد بذواتنا وهويّتنا ومستقبلنا، وعي يتحقق عبر صنع المؤلف لمنجز ذي أساس حسي، موجه إلى متلقي يعود به إلى تاريخ قديم يفتح آفاقا للتفكير في الذات، ويزداد هذا المنجز توهجا، عندما يوظف الحكي الصوفي، الذي يلتقي في إطاره الغرائبي بالعجائبي، المعقول بغير المعقول، المرئي بغير المرئي، الواقعي بغير الواقعي، ورواية الكاتب الجزائري عبد القادر عميش "سكوت .. العارفة إيزابيل تتحدث"، تعانق التاريخي وأجواء الحكي الصوفي، الذي يفعّل الخرق، خرق كل ما هو طبيعي ومألوف، كما يفعّل كل ما هو عجيب وفنتاستيكي ومتناقض، ويتجاوز حدود العقل لدرجة يصعب تصديقه.

"سكوت .. العارفة إيزابيل تتحدث"، كانت من بين الروايات المشاركة في مسابقة جائزة الطاهر وطار للرواية المكتوبة بالعربية٢٠١٧، وإن لم تتبوأ الصدارة؛ فإنها صنعت الاستثناء، فعميش جعل القارئ أمام تجربة كتابية فذة بعيدة عن الكلاسيكية، ذات البعد التجريبي المخالف للسائد والمكرور، والتي أبانت عن خصوصيتها منذ روايته الأولى "بياض اليقين"؛ حيث آثر فيها المزج بين المخيلة الروائية والمخيلة الصوفية العرفانية، التي تنشد نورانية الكتابة بالروح لا الجسد، "سأكتب بروحي مالم يقله جسدي الفاني، مالم تتسع لغة الحكي لإرجائه وتخومه، حين تكتمل درجة المقام"[1]، وتمجد الغوص في تباريح التاريخي الموغل في الذاكرة، ليمتد عشق هذا المزج في روايته الجديدة، امتثالا لبلورة فكرة التجريب الروائي الصوفي، التي تستبيح المصطلحات ذات الدلالات المعرفية، وتنزع نحو المناجاة، فلغتها شاعرية، والحكي يكون بلسان الروح لا الجسد، ليصبح السرد الصوفي وتوظيفه في رواياته سحر الغواية، التي تجعله ينفلت

(١) بياض اليقين: ٦٦-٦٧.

من عرف الزمان والمكان، متطلعا للحرية، متنصلا من كل قيود تعيق أفق الكتابة لديه، هي كتابة المغامرة، كتابة التمرد، كتابة الدهشة، ولما لا هي كتابة الكشف، التي تمكنه من الارتقاء وإنشاء عالم منفتح على كل الممكنات، يغدو فيها التوازن بين الروح والجسد، نفحة من طيب الحضرة الصوفية، إنها كتابة تجاوز الخيبة، ذلك " أن توظيف التراث ضمن النص الحداثي، يحقق لنا قدرا من العزاء في لحظات الخيبة، إننا لا نتعامل مع الماضي إلا من باب العزاء، نحتمي به وقت الشعور بالقهر والخوف"(١)، فتواجد التراث بكل أشكاله في النص صنو الحداثة، غير أن تفاعل النص مع التراث الصوفي يختلف عن غيره، في كونه يحمل معرفة روحية، تسعى لتحقيق جمالية فلسفية، تخلق فسحة للتأمل والحيرة الوجودية.

فالكاتب يدرك بحسه قيمة استحضار التراث الصوفي، وتوظيفه لغاية تروم بلورة كنه هذه العلاقة، التي " تربط بين المعرفة الصوفية، بأبعادها الروحية والإنسانية، والسرد الروائي الذي يحاول دائما أن يرسم هموم الإنسان، فكلاهما عمل على نقل المعاناة الإنسانية، مما يؤكد على قضية إنتاج تجربة روائية جديدة باستلهام الخطاب الصوفي"(٢)، لتأتي " سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث" قالبا روائيا تجريبيا جديدا، ونتاجا فكريا يعانق التاريخ، باستحضاره لحياة المستكشفة والرحالة السويسرية إيزابيل إيبرهارت (١٨٧٧-١٩٠٤)، التي تُيّمت بحب الجزائر وصحرائها، واخترتها ملجأ للتخلص من عذابات روحها ومآسيها التي عاشتها، بعدما اعتنقت الدين الإسلامي، وتعرفت على الطريقة القادرية الصوفية وسارت في رحابها، وآمنت بأفكارها في الذود عن الوطن وتخليصه من الاستعمار الفرنسي، في صورة حيّة للآخر الإيجابي، الّذي يرفض الظلم بكل أوجهه، وتصبح قضية تحرر الجزائر قضيتها الأولى والأخيرة.

(١) اشتغال الرمز ضمن إسلامية النص: ١٢.

(٢) الوظائف الدلالية والسردية للخطاب الصوفي في الرواية العربية (شجرة العابد لعمار علي حسن أنموذجا): ٦٣

ونحن عبر هذا المقال واستنادا إلى المنهج التحليلي، سنقف على استكشاف روح هذه التجربة الروائية، التي عانقت التاريخ والتراث الصوفي، ساعين لاكتشاف الآليات والتقنيات التي استند عليها الكاتب لفعل اشتغال هذه التوليفة، راصدين تكوّنها ومفسّرين نظامها وأثرها داخل النّص.

صوفية عتبات رواية "سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث":

إنّ أكبر رهان يواجهه الكاتب إسناد عمل أيام وليال طوال إلى عنوان، فهذا الأخير يعتبر مكونا جوهريا، يساهم مثل باقي المكونات في تشكيل لحمة النص وسداده[1]، إنه مفتاح التأويل، تقع على عاتقة مهمة تهيئة القارئ للولوج إلى عالم النص الداخلي، فالخطاب الهامشي بتعبير فيليب لوجونPhilippe Lejeun ، يؤسس للحظة أساسية بين القارئ والنص، و"سكوت .. العارفة إيزابيل تتحدث" عنوان ذو ملمح صوفي، يشي بالغرابة التي تهيئ المتلقي منذ البداية بأنه حتما سيكون أمام نص ذي طابع عجائبي، فالسكوت في اللغة يعني الصمت وعدم النطق، والصمت عند الصوفية يعني التوافق التام بين الروح والعقل والجسم، وهو أسمى وأرقى وأهم أركانها، وكلمة "سكوت" هنا جاءت مفعولا به منصوبا وعلامة نصبه الفتحة، لفعل محذوف تقديره إلزم السكوت، فاعله ضمير مستتر تقديره أنت، بمعنى أن الكاتب يطالب متلقي النص التزام السكوت، ثم أردف الكلمة (سكوت) بثلاث نقاط (...)، ما يعني أنه يطالب بسكوت من نوع خاص، إنه السكوت بسكونه المطبق، الذي يتطلب الهدوء التام، والتدبر والسماع والإنصات بكل حواسك لمن سيتحدث، سكوت يعني الحضور، حضور الذات العميقة التي تعبر عن ذروة روحية، فالسكوت في حضرة القطب العارفة إيزابيل واجب، من أجل تلقي أنوار المعرفة، فـ"حكومة العارف نطقه.." [2]، والتواصل معها كما يرى الكاتب لا يتم إلا بالصمت، الذي يحيل على التواصل بالقلب، والذي يقود إلى

(١) عتبات الكتابة في الرواية العربية: ١١.

(٢) مواقف ومناجيات – ضمن نصوص صوفية غير منشورة: ١٥.

المعرفة، وكما يقال ما صمت عاقل قط إلا اجتمع عقله وحضر لبه، فمتلقي النص وفق ما يتضح من نوع خاص، وضع له عميش "بروتوكولا للقراءة، وتوجيها للقراءة في عملية القراءة ذاتها"(١)، إذ يجب أن يتلقف ما سيسمعه بروحه، التي ستستكين في حضرة العارفة الرومية، وكله يتساءل عما ستحدثه به، والأكيد أن الإنصات والاستماع يتطلب متكأ جيدا لتحقيق الاستراحة، استعدادا للإبحار في عالم القصص التي ستحكيها العارفة، فالمكان يجب أن يناسب المقام، فالعنوان وفق ذلك " يشكل تساؤلا، ويخلق انتظارا من نوع خاص، تتلبسه الحيرة والتردد، كما تتلبسه المفارقة العريقة التي ينتجها تساؤل المتلقي، لأن العنوان يفاجئ، ويحير بحسب المعرفة التي يخلقها"(٢)، ويجعله يترجى أن يجد لها إجابة علها تحيد عنه حيرته.

أما العرفان فهو أعلى المقامات درجة عند الصوفية، ولكي يصل الصوفي إلى درجة العارف فإنه يمر بمراتب، ذلك أن الوصول إلى الله يكون حسب القدرة، والتي تبدأ من محب يجتهد في معرفة الله، وصولا إلى عارف استقر في مقام «العارف بالله»، يأخذ بقلوب المريدين إليه، فمقامات ودرجات العارفين " يخوضون بها في حياتهم الدنيا، دون غيرهم، فكأنهم وهو في جلابيب من أبدانهم، قد مضوها وتجردوا عنها إلى عالم القدس، ولهم أمور خفية فيهم، وأمور ظاهرة عنهم، يستنكرها من ينكرها ويستنكرها من يعرفها.."(٣)، وتعتبر الإرادة أولى مراحل السمو نحو العرفان، "وهو ما يعتري المستبصر باليقين أو الساكن النفس إلى العقد الإيماني من الرغبة، في اعتلاق العروة الوثقى فيتحرك سيره فهو مريد، ..فمبدأ هذه الإرادة هو تصور الكمال الذاتي الخاص بالله تعالى، ويكون ذلك أما بالبرهان أو بالإيمان، أي بالاستناد إلى القياس البرهاني، أو بالاستناد إلى قول الأئمة الهادين إلى الله تعالى، رغبة في الاعتصام بالعروة الوثقى، التي لا تزول ولا تتغير، وإن التمسك بهذا التصور لكمال الذات الإلهية، يمثل مبدأ حركة

(١)شعرية العنوان في الشعر الجزائري المعاصر: ٤٨.

(٢) العجائبي في الرواية المغاربية المعاصرة، روايات الميلودي شغموم أنموذجا: ١٥٩.

(٣) الإشارات والتنبيهات: ٤/ ٤٧-٥٠.

السير إلى العالم القدسي، فإن غايتها نيل روح الّاتصال بذلك العالم"[1]، فايزابيل جاهدت نفسها ووصلت بها إلى مقام العرفان، ذلك أن الوصول إليه يتطلب اجتهادا بيقين، يصل في الأخير إلى اتحاد إرادة العارف بإرادة الله عز وجل، "أيتها الطيبة يا أميرة الرمل، بل يا أميرتي، اعلمي أن طيبة نفسك وتواضعك وقربك من الفقراء المعدومين رفعك إلى المقام الرباني الذي صرت عليه، وتلك والله صفة الصالحين الأخيار الذين امتحنهم الله ثم اصطفاهم .. فصرت من أصحاب اليقين العارفين بالله" [2].

"فسكوت .... العارفة إيزابيل تتحدث" ثريا يتماهى دالها مع مدلول النص، فهو يحيلنا مباشرة ودون أي وسائط إلى الشخصية الرئيسية، التي تدور حولها أحداث الرواية وهي شخصية العارفة إيزابيل، ورغم وضوح العنوان، إلا أن القارئ يجد نفسه أمام عتبة لا عهد له بها، تشتغل على خلق فسحة للإيهام عن المتحدثة العارفة إيزابيل التي ستبحر به في عالم البوح الصوفي والتاريخي، ليفتح بذلك نافذة تشتغل على تحقيق الرمزية وتخصيبها، بالإضافة إلى تعميق الدلالة، ووشم النص بمتخيل فوق العادة، يقوم على الانزياحات والمفارقات، والفنتازيا، بتفعيل طاقات إيحائية، تفتح ذراعيها للتدليل على المطلق الدلالي.

ولأن الرحالة العارفة أخذت بقلب وحواس كاتبها، الذي رآها ببصيرته قبل بصره، وتعلّق بها تعلُّق الوليد بأمه، آثر خوض مرامي الكتابة عنها، كتابة بلغة العشق النوراني، الذي يحكي تجربتها الروحية في معرفة الله، ومحاربة الاستعمار، حقيقة الوجود والفناء، التي كتب عميش في ظلها نصا ينحو نحو اللامألوف، نص حكاية المريد الخاضع في العشق.

هذا الحبيب الذي في القلب مسكنه

(١) الإشارات والتنبيهات: ٤/ ٤٧-٥٠.

(٢) سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث: ٨٩.

عليه ذقت كؤوس الذل والمحن

عليه أنكرني من كان يعرفني

حتى بقيت بلا أهل أو وطن

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم

ما لذة العيش إلا للمجانين[١]

عشق نوراني قدسي سكن جنباته، وكتب حروفه بروحه، لنكون أمام " مغامرة جمالية، جعلت الكتابة مرآة لانعكاس الذات الأخرى، والصورة الأخرى المشتهاة، والمحلوم بها"[٢]، مغامرة أرادها صورة للعرفان بجميل ما قدمته هذه المرأة للجزائر والجزائريين، الذين تيموا بحبها، " قلت لها وأنا أسترجع فكرة صديقي المكحل واقتراح عزيزتي مريم هناك في الشمال، حين اقترحا علي أن أكتب عنك نصا روائيا حزينا يخلدك تماما كما فعلت مع هايدي في بياض اليقين"[٣]، وإنكارا لكل من اتهمها بالجوسسة وأنها عميلة روسية" لا عليك يا عزيزي.. لقد تعودت على مثل هذا سواء من بعض إخوتي أومن فرنسا. فقد وصفني جنرالات فرنسا بالمشعوذة أحيانا، وأحيانا أخرى بالجاسوسة الروسية"[٤].

هكذا يجعل عميش القارئ يخمن، وهو يضعه منذ البداية عبر عتبة العنوان، بأنه سيقف على السيرة الذاتية والتاريخية للعارفة، غير أن مجال السيرة الذاتية والتاريخ حقيقي وتخييلي، تبعا للمحدد الجنسي رواية (تخييل تاريخي/ تخييل صوفي)، ما يعني

(١) سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث: ٥٢.

(٢) عتبات الكتابة في الرواية العربية: ١٢٤.

(٣) سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث: ٨٨.

(٤) سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث: ٢٤٩.

أن المتلقي ليس له أن "يشغل نفسه بمدى مطابقة الأحداث للواقع الذاتي، ولا بالأجزاء المحذوفة أو المضافة، وإنما تكون القراءة أخصب وأغنى، عندما تهتم بالفضاء الذي شيدته السيرة الذاتية، مقتطعة إياها من زمن وفضاء تاريخيين عامين، وبما تحيلنا عليه من وقائع وشخوص، تكتسي بالحتم أبعادا أخرى"(١).

ولأن الصورة أصبحت جزءا هاما من بنية العمل الأدبي، لما لها من قدرة على جلب انتباه العين وخطف انتباه المتلقي، فلقد أرفق عميش العنوان بصورة فنية لإيزابيل إيبرهارت، متربعة على عرش غلاف الرواية الأمامي، مرتديه الملحفة الصحراوية، وهي زي تقليدي ورمز من رموز الحشمة و الجمال، لباس يستر الجسم كله بطريقة "الالتفاع" أو "التلفع" يلف حول البدن ويربط عند الكتف، فالعارفة تتدثر بملحفة ذات لون داكن، ففي أعراف نساء الصحراء، أن الملاحف المصبوغة بألوان داكنة، خاصة بالنساء كبيرات السن، بينما المزركشة فهي خاصة بالفتيات الشابات الصغيرات، وإيزابيل خطفها الموت وهي شابة يانعة في عمر الورد، لم تتجاوز السابعة والعشرين، فصورة ارتدائها الألوان الداكنة دلالة بأنها لا تشبه مثيلاتها من جيلها، فهي امرأة ناضجة ذات عقل راجح، عايشت قضايا أكبر من سنها، دونتها على مخطوطاتها الملطخة بوحل واد الصفرا، والتي احتضنتها بكل قوتها حتى آخر رمق من حياتها ولم تفارقها، والتي شاء القدر لها أن تنجوا لتدون ذكراها، التي لم تمت وبقيت راسخة في ذهن التاريخ، فدعوة السكوت والإنصات لما ستحدثنا به

(١) عتبات الكتابة في الرواية العربية: ١٧١.

العارفة، التي دعاها الكاتب لم تنبع من فراغ، فما قدمته هذه المرأة يفوق عمرها، وحديثها السحر بعين المتصوفة، الذي يأخذ بيدك إلى أفاق الكشف والتجلي، صورة تتطابق تماما مع ما جاء في العنوان، ومع مجمل الحكي، علامة أيقونية، تعرف القارئ بمن هي إيزابيل كشكل لمن لا يعرفها، تعكس المرجعية الواقعية للرواية وتنفي أي غموض أو تمويه، تعمل أكثر على إثارة القارئ وتنشيط مخيلته حول كينونة هذه المرأة الرومية العارفة، الخارجة عن النمطية التي تخلت عن عالمها واستبدلت به عالم الصحراء الواسع الرحب الذي احتضنها وآمالها، فلوحة الغلاف الساكنة التي حلت فيما قبل النص، قد تفنن كاتب الرواية في نسج علاقتها مع المتن، وأصبحت تملأ فضاء النص بحركتها، حتى وهي معلقة داخل إطار الصورة التي زين بها الكاتب جدار بيت صالته، لتمسي واحدة من أهل البيت، بل أصبح بيت آل عميش مقامها الزكي"، هذه اللوحة لها القدرة على تغيير روح الناظر إليها... وهي رقية شافية لكل روح موسوسة ومسكونة"[١].

خلفية الغلاف هي الأخرى تدعم الرؤيا الصوفية، التي اتكأ عليها نص" سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث"، والذي كان عبارة عن مقتبس من مضمون الرواية، والموجود في الصفحة ١٥٣/١٥٤، اختاره الكاتب دون غيره، وأسند إليه مهمة حكي ما قبل النص، فهو أهم مقطع في الرواية، يسند عتبة العنوان والصورة الفنية للعارفة، ويساعد القارئ على فك مغاليق النص، كما يجعله يلج عالم النص مشغول البال بهذا المقطع النصي، الذي جاء عبارة عن حوار بين العارفة والكاتب السارد، يشي بأنه سيعيش هاجس التواصل الروحي بين المريد وقطبه، هاجس الكشف والتجلي، هاجس المجاهدة والوجد الروحي، حالة لعلاقة خاصة ستجمع المريد بقطبه، مناهدة روحية صوفيه تأخذنا في رحلة نتعرف فيها على الفلسفة الحياتية لشخصية عرفانية تاريخية، انطلاقا مما تقوله وما تفعله، ونغترف من ذاكرتها كل ما سما بها نحو العرفان.

(١) سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث: ٨٨.

بالولوج إلى عالم النص الداخلي، تستوقفنا عتبة أخرى بروح صوفية، جاءت بعد الإهداء بعنوان (موقف الأمر)، والتي تضم بين جوانحها مقولة لمحمد بن عبد الجبار بن الحسن النِّفري العراقي الصوفي:" قال لي أكتب من أنت لتعرف من أنت.. وقال لي الوقفة وراء ما يقال والمعرفة منتهى ما يقال"[1].

فالنفري قامة وقيمة أدبية، نبراس منير في سماء التراث العربي، ونفحة من أطيب نفحات التصوف على الأدب، والقول المقتبس من أدب المواقف، وهو نوع من الأنواع الفنية في الأدب النثري الصوفي، يومئ كما قلنا سابقا بأن:

- الرواية مفعمة بالأجواء الصوفية.

- عملية تلقي الخطاب تكون عبر الصمت والإنصات.

يركز النفري على مدى أهمية المعرفة عند المتصوفة، وذلك أنهم "إذا عرفوا أسرّوا، وإذا أسروا سكنوا المعرفة"[2]، فهي من أهم المحاور التي تؤسس لمنحى فكره الصوفي، فأساس معرفة الله معرفة النفس أولا، لتأتي بعدها الوقفة والتي تتجاوز إلى ما وراء الدنيوي، فما يثيرنا في اختيار الكاتب لهذا القول بالذات دون غيره، في كونه خطابا إلهيا يتلقفه القطب استنادا إلى جملة (قال لي)، وهو في حالة هدوء وتهيئ تام

(١) سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث: ٨٠.

(٢) المجموعة الصوفية الكاملة لأبي زيد البسطامي: ٥٧.

للإنصات، ففي عملية تلقِّي الخطاب الإلهي من حضرة القائل، فإن الواقف يفقد القدرة على الكلام، ويصبح الأدب والإنصات والصمت أساس اللحظة، من أجل أن تتم عملية الائتلاف الروحي، بين الذات الإلهية والعارف، وتبدأ العبارة الإلهية في الاسترسال دون حاجز أو حاجب، وعملية تلقي المريد الخطاب من العارف (القطب)، يتطلب أيضا الصمت والإنصات، فمقام الصمت حاضر بقوة، ويؤكد عليه الكاتب حتى على المتلقي الذي يتلقف روايته، فالذات المتحدثة العارفة إيزابيل، ورفع حجاب الكلام والحديث في حضرتها باسترسال يتطلب السكوت، ذلك أن لرؤيا العارف مفتاحها، وهي تلك اللحظة المطلقة بلا زمن أو مكان أو عنوان أو ذاكرة، إنها لحظة اختراق كل شيء وسلب مشيئته، وإماطة كل الحجب، وإزالة كل الموانع والأستار، فمن خلال (الرؤيا) يستطيع (الواقف) أن يرى كل شيء من دون حجاب، ومقام الصمت والإنصات أساس التجلي والكشف.

تماهي المؤلف عبد القادر عميش مع الراوي الشخصية المريدة:

يقف عبد القادر عميش المؤلف خلف شخصية الراوي المريد، الذي عمل المستحيل لأجل لقاء قطبه العارفة إيزابيل، حيث تمضي به الرحلة إلى أن يصل إلى مرتبة الكشف وتحقيق مراد اللقاء، لنلفي تمثلا لروح المؤلف في الراوي المريد، حيث تتطابق الأصوات، وتتحد الأرواح، ونمسي أمام الراوي المشارك homodiégétique Narrateur، في الأحداث الذي يبحث عن روحه الهائمة، وأثناء رحلة البحث يقص علينا انعكاسات حكاية العارفة إيزابيل عليه هو نفسه، ليذهب بنا عبر طريق ضبابي برزخي، أجبر على المشي فيه امتثالا لصوت الهاتف الذي سكنه وأمره أن يكتب رواية "سكوت... العارفة إيزابيل تتحدث"، " قال صوت الهاتف منسلا من سكون الهزيع الأول من ليلة الجمعة الثالثة من شهر ربيع الأول وهو يخاطبني: قال لي: أهل الحصرة يعبرون بالحرف ولا يقفون عليه... ثم تلاشى الصوت وشعرت لحظتها بقشعريرة ورعدة... حينها تدثرت وأنا أتصنت لصدى الصوت، الذي ظل صداه يكرر متباطئا وهو ينأى عبر الأثير: ـ يا كاتب الكتبة إن كتبت لغيري محوتك من كتابي، وإن عبرت

بغير عباراتي أخرجتك من من خطابي"[1]، صوت يملي عليه كتابة نص ينحو نحو اللامألوف، ليبدأ كتابة ما يحكيه أو يحكي ما يكتبه، "قلت لها وأنا استرجع فكرة صديقي المكحل واقتراح عزيزتي مريم هناك في الشمال، حين اقترحا عليا أن أكتب عنك نصا روائيا حزينا يخلدك تماما كما فعلت، مع هايدي حين كتبت عنها كتاب بياض اليقين، إكراما لها وتخليدا لذكراها، فصار نصا يحكي حكيي وحكاية تحكي حكيي عنها"[2]، ليصرح الكاتب الذي يختبئ خلف الراوي ويلتبس به، بأنه امتثل لأمر العارفة التي ستغضب إن كتب لغيرها.

من وراء هذا الاعتراف نشير هنا إلى اتكاء النص على تقنية الميتا سرد-Meta Narrative (ما وراء السرد/ ماوراء الرواية)، تقنية قائمة على قصدية الكتابة التخييلية، والتي تنتمي لتيار ما بعد الحداثة، تعبر بوعي تام عن هموم السرد عبر حكي خيالي، يتجسد في معظم أوقاته من خلال تعيين سارد بضمير الأنا، يعلن بكل صراحة ونية أنه بصدد كتابة نص حكائي، " فقد ظلت تنظر جهتي والمرة بعد المرة، تتابع بعينيها الواسعتين حركة يدي وأنا أنقر على لوحة حاسوبي"[3]، تعزّز الأسلوب الميتاسردي من خلال إدراج الكاتب لنصوص من كتاب إيزابيل " كتابات على الرمال"، والتحقيقات الصحفية التي أجرتها العارفة مع قيادات عسكرية بوصفها مراسلة حربية، بالإضافة إلى حضور رواية المؤلف السابقة بياض اليقين، فالميتاسرد في جوهره يعد وعيا مقصودا بالكتابة، يكشف فيها الراوي عن انشغالاته الفنية التي آلت به إلى فعل الكتابة.

وطبعا دراسة هذه العلاقة المؤلف/ السارد "من منطلق فرض يرى أنه ثمة علاقة تماهٍ بين السارد والمؤلف في الكتابة الروائية الجديدة، وأن هذا التماهي بوصفه علاقة بين طرفين: مجازي (السارد) وحقيقي (المؤلف)، يدفع إلي رؤية السارد بوصفه صوتًا

(١) سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث: ٨٠.

(٢) سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث: ٨٨.

(٣) سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث: ١١.

فنيًا للمؤلف، وهذه العلاقة مشروطة بتصور أن النص الروائي الجديد " الذي يصلنا من خلال صوت السارد، وهو ذات مجازية متخيلة لا يمثل المؤلف ـ وكذلك ما يتصل به من خبرات حياتية، ووقائع حقيقية، وأشياء موجودة في عالمه الحقيقي الخارجي ـ إلا بشروط خطابه الأدبي. وأول هذه الشروط إعادة بناء ما هو واقعي أو حقيقي، ليصبح علامة نصية مجازية لها قوة الحقيقي أو الواقعي. ومن ثم يصبح النص الروائي الجديد بخطابه الأدبي هو مصدر التعرف على السارد/ المؤلف الذي صار علامة أو عنصرًا نصيًا"[(١)]، فالرواية تفتح بدايتها بمعاناة الراوي، حين التبست روحه بذلك الصوت الخفي، وجعله يعيش حالة اضطراب، حالة شعورية جعلت حضوره مكثفا، من خلال وَسْم ضمير الأنا كما قلنا سابقا، الذي يضعنا في مواجهة مباشرة مع الأحداث ومن دون وسائط، ممثلا الطاقة المنشئة للخطاب بجانب الكاتب، يعمل على النهوض بفعل السرد، حضورا قارا جعل القارئ يتلهف للمس مواطن العجيب والغريب، الذي اخترق الواقع وتجاوزه بفعل ما تعيشه الشخصيات، لنكون أمام متن روائي "يرتبط فيه حضور السارد، وتماهيه مع المؤلف ـ بشكل أساسي ـ بالصيغة الأدبية، الصيغة الأدبية بمعنى ضيق يقتصر على الدلالة على الموضوع وليس على الشكل أو تقنيات السرد"[(٢)]، فموضوع السرد في حقيقته تجربة سير ذاتية لشخصية تاريخية لها وجودها الواقعي، وهذه التجربة يرويها سارد متخيل بضمير المتكلم، ولكن عبر موضوع السرد الروائي يرويها أو بمعنى أصح يكتبها مؤلف حقيقي، فإيهام الكاتب المتلقي بواقعية ما يحدث من خلال التباس روح المؤلف بالسارد، ودخوله عالم العرفان والحضرة والكشف والتجلي خطوة أولى نحو تحقيق الفانتازيا، فالحيرة مطلب القارئ تتولد مما يؤججه الراوي من عنصر تشويق ومقدرته على شل انتباهه، واستقطاب جميع حواسه نحوه، كما أن صعوبة الفصل بين عبد القادر عميش والسارد المريد والتداخل الكبير بينهما

(١) السارد والمؤلف الحضور والتماهي في دنيا زاد، على الموقع الشبكي HTTPS://ALKETABA.COM/ بتاريخ ٢٠٢٠/٠٨/٢٦، الساعة١٦:٠٦.

(٢) السارد والمؤلف الحضور والتماهي في دنيا زاد، على الموقع الشبكي HTTPS://ALKETABA.COM/ ، بتاريخ ٢٠٢٠/٠٨/٢٦ الساعة، ١٦:١٩.

لدرجة التماهي، برغم أن الأول شخصية حقيقية والثاني تخييلية، يجعلنا نخمن بأن ما يحدث برغم عجائبيته وصعوبة تحققه، بكوننا أمام سردية تخييلية عجائبية إلا أنه في جانب آخر من فرط الإيهام نحس وكأن ما نقرأه، هو فصل من فصول حياة الكاتب الذاتية، تكنيك كتابي جعلنا تحت وقع العجائبي بين رؤيا المؤلف ورؤيا الراوي ورؤيا الصوت، " أنت معي دائما يا عزيزي، يكفي أن أراك في نص الحكي. أجعلك تضحكين متى شئت.. وتسردين كيما شئت، تسردين الذي أريده أنا لا أنت، لقد منحتك مقاما كريما في بياض اليقين.. لقد صيرتك نصا رقميا يقرأ. حكاية جميلة تحكى.. أقرأك عزيزتي متى شئت.. أنت المروي وأنا المروي له.. أنت المسرود وأنا قطبك السارد والمسرود له"[1]، فحكاية العارفة، حكاية السارد المريد، حكاية النص الرقمي الذي حكى نفسه، وغزل من صوف التاريخي برنوس ذكرى واعتراف بجميل ما قدمته سيدة الرمال للجزائر والجزائريين، " استيقظت .. فتحت عيني بصعوبة .. كان نص حكي الرقمي يملأ شاشة حاسوبي، وقد كساها سواد نص الحكي، ولساني يردد أصدق الله ترى العجب"[2].

الرؤيا الحلم / الاستهلال الفنتازي:

إن الرؤيا لدى المتصوفة: "هي أن يخلق الله في قلب النائم ما يخلق في قلب اليقظان، بحيث تنبثق لدى المتصوفة في الغالب إما من الرؤيا المنامية، أو الإلهام أو من خلال صوت الهاتف"[3]، و"سكوت.. العارفة إيزابيل تتحدث" تستهل بدايتها برؤيا السارد المريد، رؤيا بإيقاع الفانتازيا سمع فيها صوتا لمس قلبه، رؤيا أشبه بالكرامة التي يمنى بها الأولياء الصالحون، ذلك أنه وجهت له فيها دعوة من العارفة إيزابيل للقائها في القنادسة، " كنت على يقين وأنا استرجع ذلك الصوت أو الهاتف، أنه سبق لي وأن

(١) سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث:٨١.

(٢) سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث: ٢٥٥.

(٣) نظرية الاتصال عند الصوفية في ضوء الإسلام: ١٩٧.

سمعته أو قرأته ربما... أقول ربما، وهو نفسه الذي جاءني عن طريق sms من مريم حين أخبرتها بذلك المنام في تلك الليلة العجيبة. الليلة التي وقفت على سيدتي في ذلك الحلم وقد واعدتني على أن نلتقي في القنادسة"[١]، فهذا الحلم سيضحى قدره المحتوم الذي سيقوده إلى المكاشفة، ويلج عالمها بعد أن يصدق الله ليرى العجب، فاستناد عبد القادر عميش على تقنية الرؤيا الحلم، والاستهلال في بداية الحكي، معناه أننا بصدد " نص يتضمن عددا من القصص العجائبية، ولما كان الاستهلال يمثل الصورة الجنينية للنص فإن عجائبية الاستهلال مدخل للوصول الى تلك القصص"[٢]، كما أنه وعبر هذا الاستهلال يومئ بأننا سنكون بصدد رحلة بحث مشروطة بالصدق، رحلة بحث السارد عن العارفة الحلم، التي سيطرت حتى على أحلام اليقظة لديه، حيث أصبح يعيش على وقع أن لصوتها رائحة يحس بها، ويستشعرها ويتبعها، " فقط أنا وحدي واصلت أبحث عنها أستجمع كل قوة الشم لدي..أستجمع قوايا الروحية.. أدير أنفي في كل الاتجاهات الأربع. باحثا عنها أو عن روحها أو ربما روحي المتشظية عني"[٣]، فالسارد أصبح موقنا بأن العارفة موجودة حقا، موجودة في كل مكان هو موجود فيه، وأن موعد اللقاء قريب، لقاء الكشف، فهيامه بحب سيدة الرمال، الشخصية التاريخية نابع من رجفة حلم راوده، بالإضافة إلى اطلاعه على كتاباتها ومخطوطاتها التي سكنت روحه (الكتابة على الرمال، الطريق إلى القنادسة، في ظلال الإسلام، المجموعة القصصية تاثغليت)، وتأثره بأفكارها وثراء خيالها ووسع مقامها، والتي شاء القدر لها أن تبقى شاهدة على رحلتها الصوفية، بعد أن خطفها الموت وهي ابنة السابع والعشرين وجرفها فيضان واد عين الصفراء جنوب غرب الجزائر، ".. فحين قرأت كتابك: كتابات على الرمال. الجزء الأول.. كنت أقرأ بعين روحي، وقد انسربت روحي وصفا لها الحال.." [٤]، فالرؤيا تُعتبَر من أكثر الآلات التصويرية إيحاء وعمقا وقدرة

(١) سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث: ٩.

(٢) عجائبية الرؤيا عند يوسف (ع): ٣٧١.

(٣) سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث: ٦٧.

(٤) سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث: ١١٣.

على تصوير عالم الغيبيات وزواياه، التي يعتبر البحث فيها بحثا عن الحقيقة المطلقة، " آه يا عزيزي وقرة عيني، ... أوصل بك تعلقك بي إلى هذه الحال؟.. أن تراني ببصيرتك قبل أن تراني ببصرك فذلك والله تعلّق وعشق المريد الصادق الذي صفت سريرته، وما ذلك سوى رتبة وفضل منة الله عليك"(١)، ليمثل الحلم بذلك شعاع النور الذي انطلقت منه الأحداث، وغدت بعد ذلك حقيقة تخييلية كما قالت العارفة تحققت بفعل الصدق، " أخيرا جئتني أيها العزيز... اشتقت إليك منذ أكثر من قرن"(٢)، فأثر الرؤيا والحلم على قلب السارد المريد المتيم هي من صنعت الفارق، ذلك أنه من يملك الحكاية يملك اللقاء، لترسو سفينة الرؤيا على واقع لقاء المحبوب بمحبوبته القطب، ويتحوّل الحكي من الارتداد الداخلي الذي تجسد عبر الحلم، إلى الارتداد الخارجي بتحققه وتجسده عبر المكاشفة التي يحيطها الكاتب بهالة من الفانتازيا.

العارفة إيزابيل بين الاستنساخ والحلول:

لقد كان للمتصوفة أراء حول ماهية الروح، حيث آمنوا بفكرة الأرواح المستنسخة، فعقيدتهم ترى أن الروح تنتقل بعد مفارقتها الجسد إلى أجساد أخرى، فهي عندهم الجوهر الذي لا يفنى، عنوان الخلود، ولهذا تم تبنيهم لمصطلح تناسخ الأرواح وليس تناسخ الأجساد، "لأن جوهر النظرية الروح، وليس الجسد وأن وظيفة الجسد فيها مقصورة على أنه وعاء لتتابع الروح وميدان تداولها وليس موضوع التتابع والتداول"(٣)، فدورات الحياة وفق ذلك لا تنتهي والفناء للجسد لا الروح، وللتناسخ العديد من التسميات كالعودة والتقمص، كما يقوم التصوف على مجموعة من المبادئ من أهمها الحلول، وهو" التصوف المبني على الإيمان بثنائية الطبيعة الإلهية، باللاهوت

(١) سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث: ١١٣.

(٢) سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث: ١٢٥.

(٣) سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث: ٥٩.

والناسوت، وبحلول اللاهوت في الناسوت"[١]، إنه اتحاد روح الله بالإنسان أو العكس، فيكون حال ومحل، وعميش ينزع إلى هذا الميل الصوفي ويوظفه في روايته، فهو يرى في هايدي ومريم ذاتا مستنسخة عن العارفة، بل نزع إلى أكثر من ذلك، أنّهما حلتا في العارفة، أو العارفة حلت في هايدي ومريم، فالاستنساخ فناء الجسد وارتحال الروح إلى جسد آخر، والحلول كما ذكرنا آنفا يعني اتحاد وامتزاج بين ذاتين مختلفتين، فالامتزاج والاتحاد هنا كان بين أرواح وذوات إنسانية، " لا يهم الاسم، مريم، أو إيزابيل، أو هايدي، فكلهن كثرة في واحدة"[٢]، وعن من هي هايدي التي حلّت روحها وذاتها بسيدة الرمال، فهي بطلة رواية عبد القادر عميش السابقة " بياض اليقين"، الفتاة الشيشانية طالبة الشريعة التي جاءت إلى قسنطينة للدراسة في كلية الشريعة "، ومريم فهي الشاعرة، حبة قلب وقرة عين السارد ومريدته الفانية ومريم اسم العارفة العربي الذي كانت توقع به بعض رسائلها وتزوجت وعقدت به" ركزت نظري على عينيها .. أستغفر الله العظيم... ياالله. كانت صورة ونسخة حقيقية لهايدي أو مريم واقع الناس"[٣]، فاختياره لهذا الاسم لم يكن اعتباطيا، فالعارفة سكنت عقله وقلبه وأصبح يراها في كل الفتيات اللواتي يحطن به.

أصدق الله ترى العجب ... مفتاح كشف التاريخي:

"أصدق الله ترى العجب ..."، تمثل هذه الجملة مفتاح السيرة الإبداعية لعبد القادر عميش، فصدق المحبة للكتابة هو الذي يصنع الإبداع ويصنع الفارق معه، وهذا ما يعول عليه في روايته " سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث"، فصدق محبته للعارفة بلغ منتهاه، فحبها غُرس في قلبه، ليسقيه بماء الكتابة، التي أثمرت روايته الزكية، التي جاءت على لسان السارد المريد، حيث واصل السعي نحو محبوبته القطب التي لقنته

(١) مختصر تاريخ التصوف: ١٩٠.

(٢) سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث: ٥٣.

(٣) سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث: ٦٨.

مفتاح الولوج، " لقد لقنتني مفتاح الولوج إلى المطلق، قالت وهي تهمس في أذني اليمنى وكأنها تؤذن، تماما كما يفعل المولود لحظة خروجه إلى الحياة:- فقط أصدق الله ترى العجب"[1]، لازمة سردية تتكرر كثيرا، تأكيدا على أن مفتاح الكشف الصدق، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يعْمَلُونَ (٣٥)﴾[2]، أصدق الله ترى العجب ترنيمة من ترانيم تجلي وكشف العالم الماورائي، الذي ينشده السارد المريد عند لقائه بقطبه، فالكشف في الاصطلاح الصوفي يعني رؤية ما وراء الحجاب، وتجلي المعاني الغيبية، وما وراء الحجاب كان تاريخا يحفل بالأحداث، وعليه فإن هذه اللازمة التي يمكن تحديدها بفكرة وحي اللقاء الصدق لتجلي التاريخي، تاريخ الجزائر وتجربة التفجيرات النووية التي جربتها فرنسا على الجزائريين في صحراء بشار، والتي تجلت وتكشّفت على لسان الشيخ، بالإضافة إلى تاريخ العارفة الذي تجلى من خلال حوارها مع السارد، ومحاربتها للظلم والظالمين ولقاءاتها بشيوخ المقاومة و بأقطاب الزوايا وتشربها لزاد المعرفة منهم.

الحضرة وكشف التاريخي:

في رواية يتداخل فيها الصوفي بالتاريخي نسج عميش عبد القادر خيوط الحكي العجائبي، حيث يدخلنا إلى ماضويته بنفخ روح الحياة فيه، عبر " ما يسمى بأدب الحضور أو أدب المعنى الذي يعني التمكن في الحضور الوجودي زماناً ومكاناً،

(١) سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث: ١٠.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٣٣-٣٥

والذي يدل على كينونة الوجود، أو الوجود الحاضر المقابل للاوجود، الذي يسميه العارفون المسلمون بالحضرة أو الحضور"[١].

فعلى لسان الشيخ وفي دائرة الحضرة، حيث يحرم على من دخلها في العرف الصوفي أن يكون غافلا عن ربه، فالحضرة منزهة ومقدسة لا يدخلها إلا المطهرون، تكشفت له صورة بشاعة الاستعمار الفرنسي في الجزائر، والتجريب النووي الذي مارسه على شعبها بصحراء بشار، ليعيدنا إلى ماضي الجزائر الجريح، " كان الشيخ إذا أراد أن يتكلم بكشف، يطرق برأسه إلى الأرض برهة ثم يرفعه وعينيه كالجمرتين"[٢]، حقبة من أبشع الحقب التاريخية، سلط المؤلف فيها الضوء على التجربة النووية الفرنسية بمنطقة رقان ببشار، " في بداية شهر فيفري من سنة ألف وتسع مائة وستين، كان كل شيئ جاهزا في رقان وأصبح الأمر كله بيد الأرصاد الجوية التي ستحدد اليوم المواتي للتفجير، وفي فجر ١٣ من فيفري ١٩٦٠ أعطى الجنرال إليري الأمر بالتفجير الأتوماتيكي"[٣].

جرح غائر في تاريخ الجزائر البيضاء لمحرقة نووية جعلت الجزائريين أشبه بفئران تجارب، سلطة لا إنسانية دست سمها في صحراء بشار وأمطرتها بوابل من الإشعاعات النووية، " ها هم يمضون بهم باتجاه لحظة الفجيعة .. ها هم يصطفون في شاحنة عسكرية، إنهم مجاهدون من الشمال، محكوم عليهم بالإعدام جيئ بهم من سجن سيدي بلعباس.. كانت التعليمة العسكرية واضحة وصارمة، يمنع التحدث معهم.. كانوا واقفين، مكبلي الأرجل والأيادي، لا يمكنهم الحراك .. حتى رؤوسهم كانت مثبتة

(١) سحر الرواية العرفانية عند عبد الإله بن عرفة، على الموقع الشبكي: https://arabicpost.net/opinions/2018/05/05/، بتاريخ، ٢٠٢٠/٠٩/٠٣، الساعة: ١٥:٤٨.

(٢) سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث: ٢٢.

(٣) سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث: ٤٥.

بواسطة قضبان تمنعهم من الالتفات إلى اليمين أو اليسار.. ومع ذلك ظلت أعينهم ترسل بريقا خافتا، وهي تحكي في صمت معاناتهم المتنامية، ووقع الموت الذي يسكنهم، كصرخة تأبى الانطلاق صرخة ألم سوف يخترق جلودهم حد الموت"[1]، وهكذا يتعامل الكاتب العرفاني على تسريد أحداث التاريخ من زاوية الكشف، التي جعلتنا نستشعر أنين وانكسارات الجزائري أثناء لحظة التفجير، لنتجه إلى أننا في حضرة الغياب و بتعبير أصح أمام التاريخ السياسي المسكوت عنه، المغيب قسرا لجرائم السلطة الاستعمارية التي تأبى إلى غاية يومنا هذا الاعتراف بها، وتسديد دية الذنب المقترف في حق مليون ونصف مليون شهيد، دية قرن ونصف قرن من الاضطهاد والتنكيل والتشريد والقتل.

العارفة إيزابيل الكشف وذاكرة التاريخي:

يمتطي السارد المريد جواد الصدق الروحي الذي قاده إلى الكشف، ولقاء محبوبته القطب وروحها الطيارة، حيث يسافرا سويا إلى عالمها الذي تذكرت فيه كل ما عاشته في الجزائر وصحرائها، لتتعالق الذاكرة مع ما يتلاءم الأفق الإبداعي العرفاني، الذي يمتزج فيه السير الذاتي بالتاريخي، لتحدثه عن إقامتها بواد سوف عشقها الأبدي، المدينة التي سكنت روحها وتيمت بصحرائها ونخيلها وكثبانها الرملية، " واد سوف كما عرفته منذ إقامتي به، فيه بساتين كثيرة، وفيه من الأشجار والنخيل والرمان وأشجار الليمون، آه ياوادي سوف"[2].

كما أطرقت بحديثها عن بونة (عنابة) قبلتها الأولى ووالدتها إبرهارت نتالي شارلوت دوروتي، حيث التمستا فيها الأمن والأمان، واحتضنتهما وأهلها بكل حب، "لقد ذكرتني بتلك الأيام حين كنت في عنابة كانت أياما صعبة ياعزيزي..كنت متشردة

(١) سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث: ٤٧.

(٢) سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث: ٧٣.

لا مال ولا سكن، لكن أحباب الله كثر وأهل عنابة كانوا طيبين معي"[١]، "كنت أستمع إلى حديثها الحزين عن أمها، وأنا استرجع في نفسي قصة أمها إبراهارت نتالي شارلوت دوروتي، والتي استقر ترحالها بعنابة، حيث أسلمت وماتت، وهي تحمل اسما عربيا، فاطمة منوبية"[٢].

عين الصفرا هي الأخرى كان لها نصيب وحياة فيها، حيث سكنتها في أواخر أيامها والتي شاء القدر أن تفارق الحياة فيها وتدفن بمقبرة سيدي بوجمعة، " آه ياعزيزي لقد ذكرتني بعين الصفرا وبناسها الطيبين، هم أهلي وأحبابي.. آه ياعزيزي.. أحببتها حد الفناء.. ولقد أكرمني ربي وقدر قدري من قبل ومن بعد أن موتي سيكون فيها وبين أهلي.. آه ياعزيزي كم أنا سعيدة أنني سأظل بينهم إلى الأبد. أنام بينهم قريرة العين"[٣].

فكل مدينة وطأت قدمها تسكنها بتاريخها وآمالها ووقائعها، إنه الاحتفاء بالمكان الذاكرة/ التاريخ الذي يعيش في قلبها، المكان الذي رسم ملامح جزائرية على وجه سويسري الجمال.

ذاكرتها/ التاريخ لم تنس أثر الغوث محمد بن أبي زيان، مؤسس الزاوية الزيانية بالقنادسة على شخصيتها، الولي الذي عرف بزهده ورفع المظالم ونجدة المغيث، وإقرار السلم الاجتماعي، صاحب كريزما روحانية استقطبت العديد من المحبين والمريدين به، " كان رضي الله عنه وأرضاه زاهدا محتسبا ... كان وهو بفاس إذا جاء خراج السلطان وعطاؤه كهبة لطلبة العلم، وهذه مزية من مزايا السلطان، كان سيدي بن

(١) سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث: ٦٩.

(٢) سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث: ١٤٢.

(٣) سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث: ٨٨.

أبي زيان لا يلتفت إليه بوجه ولا حال، حتى إذا اشتد به الجوع أو الظمأ ولسدّ رمقه كان يضطر في بعض الأحيان الأخذ من فضلات الناس"[1].

قطب آخر عايشته وعايشت معه المقاومة، إنه الشيخ بوعمامة المتصوف الثائر، الذي كبّد فرنسا خسائر كثيرة، كان له حظ الحديث الأطول عنه، فقد أسهبت العارفة إيزابيل في ذكر المواقف التي جمعتها وإياه، وإعجابها الشديد به، فالمراسلة الحربية المتمردة استطاعت أن تكسب ثقة شيوخ وأمراء المقاومة، فلقد كانت تسعى لتقصي الأخبار واللقاء بهم، لنقل الأخبار على لسانهم بكل مصداقية ويقين، "خرجت مع بوسماحة فرجي وكان الوقت صيفا من زاوية سيدي سليمان بوسماحة إلى الزاوية الشيخية زاوية سيدي عبد القادر بن محمد وهناك التقيت بسي بوعمامة.. حاول أن يظهر أمامي كأنه لا يعاني من أي مرض استمع إلى حديثي وأجاب عن معظم أسئلتي .. وحين سألته عن ترتيباته وتحالفه مع الشيخ الجيلالي بن عبد السلام الزرهوني الملقب بـ(الروقي بوحمارة) قائد المقاومة المغربية ... تهرب الشيخ من الإجابة ..وأفهمته أنني لن أرسل إلى جريدة الأخبار ما يوافق على نشره.عندها أفهمني الشيخ أن أهم التفاصيل سأجدها عند قائد جيشه الأمير عبد الملك الجزائري"[2]، فالثقة التي استطاعت الفوز بها ناجمه عن كونها امرأة لا تشبه النساء، دخلت عالم الطريقة الذي زهدت فيه عن ملذات الحياة، مبايعة النشوة الروحية التي قادتهاإلى عالم التجلي والكشف، عالم الوجود ولا وجود، اليقين ولا يقين، المطلق ولا مطلق، الحضور والغياب، إنه عالم الصدق الذي جعلها مترفعة عن الدناءة والخيانة، " اعلم ياعزيزي .. أنني في بداية الأمر كنت أشعر بشيء يتفجر بداخلي، تترجمه نفسي إلى حالة من الغموض، شيء يشبه اللذة ربما .. حالة من السكر وليس بسكر.. ربما كان ذوبانا روحيا. ربما كنت أحس بسمو لا اسم له، يحمل روحي نحو مناطق مجهولة من النشوة.. وهو ما يمكن وصفه بالإحساس الغامض ولكني كنت وقتها أدرك بيقين

(١) سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث: ٧٤.

(٢) سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث: ١٠٠/١٠١.

وصدق أنها بداية الطريقة" [١]، وكل هذا جعلها محل مراقبة من الفرنسيين، الذين سعوا للتخلص منها، وهي المرأة الرجل الملقبة بحمودة، صاحبة الزي الجزائري الرجالي، التي أوجعتهم باهتمامها بالجزائريين ومناصرتها لقضيتهم، كما زرعت الخوف في نفوسهم جراء كشفها جرائمهم، التي سعوا لطمسها، وهذا ما ذكرته من خلال حادثة (البهيمة)، حيث كانت ضحية اعتداء من طرف الشاب عبد الله بن محمد التيجاني، والذي كادت فيه أن تفقد يدها، "عبد الله المسكين لقد كاد أن يقطع يدي، سامحه الله.. كانت تلك مكيدة من إخواني أهل الطريقة التيجانية، لقد اعتقدت في البداية وبسبب الصدمة أنها مكيدة مدبرة من بعض أصحاب الطريقة التيجانية، ولكن سرعان ما تبين لي أنها مكيدة مدبرة من فرنسا. لقد قلت للقاضي الفرنسي وقتها إنني على علم من أن محاولة اغتيالي مدبرة من طرف إدارة بيروعراب، وليس لأني أهنت الإسلام بلباسي الزي الرجالي بل لأني اكتشفت جرائم فرنسا ضد المواطنين الأبرياء"[٢].

الذاكرة/ التاريخ مفتاح الولوج الصدق، من أجل تجلي وتكشف قصص كثيرة في حياة العارفة، قصّتها على مسمعي السارد المريد، ملحمة حياة لشابة لم تعش غير سبع وعشرين سنة، حكايا جاءت بصيغة الاستطراد والاسترجاع والتذكر، والانتقال من حكاية إلى أخرى، أو من واقعة إلى أخرى، تمت بسلاسة كبيرة تنم عن مقدرة الكاتب وتمكنه من ناصية السرد.

وأخيرا نخلص إلى القول بأنّ "سكوت .. العارفة إيزابيل تتحدث"، رواية تواشج فيها الحكي الصوفي بالتاريخي الذي ينزع إلى الانزياح، وخرق المألوف والمنطقي والممكن، ليسحب القارئ ويأخذ بيده إلى عالم الفانتازيا والدهشة، عالم يتأرجح فيه بين واقعية الأحداث ووهميتها، نسيج عجائبي لأحداث بدأت بجلم، وتحققت بالتجلي والكشف ولقاء المريد بالقطب العارفة، أعادت صناعة التاريخ بعين الصدق الروحي، عبر استحضار العالم الماورائي واللامرئي، الذي لم يكن سوى ذاكرة التاريخ.

(١) سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث: ٨٢.

(٢) سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث: ١٤٨.

المصادر والمراجع

الإشارت والتنبيهات، أبو علي الحسين ابن سينا، تح: سليمان دنيا، دار المعارف، دط، مصر، د.ت.

اشتغال الرمز ضمن إسلامية النص، عبد القادر عميش، مجلة حوليات التراث، ع/٢، جامعة مستغانم، الجزائر،٢٠٠٤.

بياض اليقين، عميش عبد القادر، منشورات دار الأديب، د. ط، وهران، الجزائر، ٢٠٠٦.

السارد والمؤلف الحضور والتماهي في دنيا زاد، أحمد عبد المقصود،/HTTPS://ALKETABA.COM ٢٠٢٠

سحر الرواية العرفانية عند عبد الإله بن عرفة، مغير تايه، https://arabicpost.net/opinions/٢٠٢٠/٠٩/٠٣

سكوت ... العارفة إيزابيل تتحدث، عبد القادر عميش، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، دط، تيزي وزو، الجزائر، د. ت.

شعرية العنوان في الشعر الجزائري المعاصر، حسنية مسكين، أطروحة دكتوراه في الأدب الحديث والمعاصر، إشراف: محمد داود، جامعة السانيا، كلية الآداب واللغات والفنون، وهران، الجزائر،٢٠١٣/٢٠١٤.

عتبات الكتابة في الرواية العربية، عبد الملك أشهبون، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط١، اللاذقية، سورية، ٢٠٠٩.

العجائبي في الرواية المغاربية المعاصرة، روايات الميلودي شغموم أنموذجا، خيرة جديد، أطروحة دكتوراه في الأدب العربي، إشراف: قادة عقاق، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، كلية الآداب واللغات والفنون ٢٠١٧ /٢٠١٨،

عجائبية الرؤيا عند يوسف (ع)، وداد مكاوي حمود، مجلة جامعة بابل، العلوم الإنسانية. ع:٢، المجلد ٢٠، العراق،٢٠١٢

المجموعة الصوفية الكاملة، أبو زيد البسطامي، تح: قاسم محمد عباس، دار المدى للثقافة والنشر، ط١، دمشق، سوريا،٢٠٠٤.

مختصر تاريخ التصوف، علاء بكر، دار ابن الجوزي ط١، القاهرة، ٢٠١٢.

مواقف ومناجيات – ضمن نصوص صوفية غير منشورة –، محمد بن عبد الجبّار النفري، تح: بولس نويا اليسوعي، دار المشرق، د. ط، بيروت، لبنان.

نظرية الاتصال عند الصوفية في ضوء الإسلام، سارة بنت عبد المحسن بن عبد الله بن جلوي آل سعود، دار المنارة، ط١، السعودية،١٩٩١.

الوظائف الدلالية والسردية للخطاب الصوفي في الرواية العربية (شجرة العابد لعمار علي حسن أنموذجا)، كريمة بوكرش، أطروحة دكتوراه علوم في الأدب العربي، إشراف: عبد الغني بن شيخ، جامعة محمد بوضياف، قسم اللغة والأدب العربي، المسيلة، الجزائر ٢٠١٦/٢٠١٧.

Kaynakça / References

Adjaibiyat EL Tasawof INda Yusef, Makawi Hammoud, Journal de l'Université de Babylone, Sciences humaines. P / 2, Volume 20, Iraq, 2012

Atabat El riwaya EL arabiYa, Abd al-Malik Ashhaboon, Dar Al-Hiwar LINACHRE WA EL TAWZIE,1st ed, Lattakia, Syria, 2009.

Bayad Al-Yaqin, Abdelkader Amish, Dar Al-Adeeb, Oran, Algeria, 2006.

Chieriyat El onwan a Fi El Chier El arabi Al moaser, PhD thesis in modern and contemporary literature, supervised by: Mohamed Daoud, University of Sanya, Faculty of Letters, Languages and Arts, Oran, Algeria, 2013/2014.

El Adjaibi Fi El riwaya El marabiya EL miasira, Hosnia Meskin, thèse de doctorat en littérature moderne et contemporaine, sous la direction de: Mohamed Daoud, Université de Sanya, Faculté des Lettres, Langues et Arts, Oran, Algérie, 2013/2014.

El ichrat Wa Al tanbihat, Abu Ali Al-Hussein Ibn Sina, Tah: Suleiman Dunya, Dar Al-Ma'arif, Egypte.

El Madjmoa ElSufiya El kamila, Abu Zaid Al-Bastami, Under: Qassem Muhammad Abbas, Dar Al-Mada, 1st ed, Syrie, 2004.

El sared Wa El moalif El hodhor Wa El tq,qhi Fi Dunia Zad, Ahmed Abdel-Maqsoud,HTTPS://ALKETABA.COM/ 202.

El wadhaif El dalalia el wa El sardiya li elkhitabe El sofi fi Elriwaya, Karima Boukarsh, Ph.D. thesis in Arabic literature, supervised by: Abdelghani Bin Sheikh, University of Mohamed Boudiaf, Department of Arabic Language and Literature, Al-M'sila, Algeria 2016/2017.

Ichtiral El ramz dhimna islamiyat El nase, Abd al-Qadir Amish Annals of the Heritage, vol/ 2, Mostaganem University, Algeria, 2004.

Moktasar tarikhe EL tasawof, Alaa Bakr,DAR Ibn Al-Jawzi, 1st ed, Le Caire, 2012.

Mwakif wa monadjiyat, Muhammad Ibn Abd al-Jabbar al-Nafri, translated by Paul Noya al-Jesi, Dar al-Mashriq, Dat, Beirut, Lebanon.

Nazariyat El Itesal Inda Elsofia Fi Dhawe Elislam, Sarah Bint Abdul Mohsen bin Abdullah bin Jalawi Al Saud, Dar Al-Manara, 1st ed, Arabie saoudite, 1991.

Scott ... EL arifa Isabelle ttahadath, Abdelkader Amish, Dar Al Amal, Tizi Ouzou, Algérie.

Sihr El Riwaya El iRfaniya, Abd al-Ilah ibn Arafa,MORIR TAEH, /03/09/2020 https://arabicpost.net/opinions.